نماذج من الأسلوب العدولي في القرآن الكريم

" دراسة نحوية "

دكتور

محمد عطية محمد علي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نماذج من الأسلوب العدولي في القرآن الكريم

دراســـة نـحـويـة

د . محمد عطية محمد علي

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خير من هدى وأرشد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمـــا بعـــد ، فهذه دراسة تلقي الضوء على نقطة من بحر القرآن الزاخر ، وتلفت الانتـــباه إلـــى شيء من عظمة الإعجاز التعبيري في القرآن الكريم ، ذلك لأننا نرى في القـــرآن الكـــريم استعمالا لتعبيرات معينة ، قد استعملت في مواضع أخرى مع قليل من التغيـــير والتعديل ، قد يكون ذلك بإضافة ، أو حذف أو تغيير رتبة ، أو تغيير إعراب .. إلى آخر ذلك .

وقد يحدث ذلك في اختيار فعل في مقابل اسم ، كقوله تعالى :

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (١)

لمتدبر القرآن أن يقف عند استعمال المضارع ينفد في مقابل الاسم "باق" ليتأمل ما وراء ذلـــك من أغراض دلالية ، وبطريقة أخرى للمتدبر أن يسأل : لماذا لم يقل القرآن : مـــا عـــندكم ينفد وما عند الله يبقى،فيكون يبقى مضارعاً في مقابل ينفد؟ومثل ذلك في القرآن كثير .

وفي القرآن الكريم ثنائيات في التعبير متساوية فيما بينها ، وهذا التساوي قد تكون له دلالته ، كالتوكيد أو إرادة عدم التفاوت ، كقوله تعالى : وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ

١- النحل ٩٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قَمِيصُـــهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ(٢٧)[١]

ولنا أن نكتب الجملتين كالتالي ، لنلحظ الثنائية متساوية في التعبير :

إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين

وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين

إن اســتخدام ذات أداة الشــرط ، وذات فعل الشرط ، واسم كان وخبرها والفاء الداخلــة علــى جــواب الشــرط الذي هو فعل ماض ، وكذلك اسم الفاعل "الكاذبين" و "الصــادقين" كــل ذلك يوحي بعدل ذلك الشاهد الذي لم يغير في العبارة بما قد يدل على رغبــته فــي تســيير الحكم إلى طرف دون آخر . اللهم إلا إذا أخذنا في الاعتبار البدء باحتمال صدق امرأة العزيز ، قبل احتمال الكذب .

ومن أمثلة الثنائية المتساوية ، قوله تعالى : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٤١)[٢]

إذن ليس من عمل هذه الدراسة النظر في الثنائيات المتساوية في ألفاظها وطريقة تركيبها ، إنما يقع الاهتمام على تلك الثنائيات التي اختلفت طريقة تركيبها ونظمها .

ولا يخفى أن تنوع استخدام تركيب واحد أو كلمة واحدة بين اسم وفعل ، وحذف وذكــر ، ومعــرفة ونكــرة ، ومتعد بهمزة وآخر بالتضعيف كل ذلك منبعه ما في اللغة العربــية من طاقات تعبيرية غنية في أنواعها وطرقها ، قد استعملها القرآن الكريم لخدمة الدلالة استعمالا لا نظير له يعجز عنه أهل الفصاحة .

لا يشــترط أن يكــون العــدول الأسلوبي في آية واحدة ، بل قد تأتي بين آيتين متتاليتيــن أو متباعدتين ، وقد تكون بين أكثر من آية ، المهم أننا سنركز الضوء على ما وقــع فيه العدول واضعين إياه جنبا إلى جنب محاولين معرفة سر هذا التنوع بما يفتح الله علينا به .

ولسوف تكون منطلقاتنا في هذه الدراسة هي ما تعارف عليه النحويون من قواعد وأصول فما ذلك إلا انعكاس لما عليه لغة العرب في نظامها التركيبي ، والحق أن النحاة العــرب قد درسوا خصائص لغتهم وحللوا عناصرها وتراكيبها بصورة عزت نظائرها .

١- يوسف ٢٦،٢٧ .

٢- يونس ٤١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعـندما نحـتكم إلى لغة العرب وما دار حولها من مجهودات وتحليلات فإن ذلك يسهل علينا الوقوف على ما ورد في القرآن الكريم من جمل وتعبيرات تكرر ذكرها بشيء من الاختلاف أو العدول مما عليه الصورة الأخرى .

جاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول وخاتمة

الفصل الأول : العدول بين الاسمية والفعلية ، تناولت في هذا الفصل الآيات التي وقـع فيها العدول من الاسم إلى الفعل ، أو من الجملة الاسمية إلى الفعلية والعكس ، كما وقع في "يخرج" من قوله تعالى : "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ" [١]

الفصل الثاني : العدول بين الحذف والزيادة ، وفي هذا الفصل أتناول الآيات التي وقـع فـيها زيـادة أو حـذف ، كما وقع في أبصر من قوله تعالى : وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥)[٢] وقوله : وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٩)[٣]

الفصل الثالث : نمـاذج مـتفرقة ، وهـي من غير الاسمية والفعلية أو الحذف والزيادة ، وقد وضعتها تحت هذا العنوان ، لأنها نماذج متفرقة صعب وضعها تحت إطار واحـد ، فمنها ما يرجع العدول فيها إلى اعتبارات إعرابية أو لاختلاف الرتبة أو لتغيير ضـبط الكلمة وذلك مثل : استعمال "شقوا" اللازم في مقابل "سعدوا" المبنى المجهول في قولـه : فَأَمَّـا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَـنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مـا دَامَـتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨)[٤]

الخاتمة : وفيها أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة .

أسـأل الله عز وجل أن يرزقنا التفقه في كتابه وأن يحفظنا من الخطأ والزلل وأن يرزقـنا ثـواب النظر في كتابه ، وأن يجعله عملا خالصا لوجهه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

١- الأنعام ٩٥ .

٢- الصافات ١٧٥ .

٣- الصافات ١٧٩ .

٤- هود ١٠٦ ، ١٠٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

العدول بين الاسمية والفعلية

* يقــول تعــالى : مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ [1] نلحظ في هذه الآية الكريمة الفعــل "ينفد" في مقابل "باق" وكان يمكن لهذه الثنائية أن تكون على صورة ما عندكم ينفد ومــا عند الله يبقى . بتساوى الصورتين بين الفعلين المضارعين . لكن الوارد في القرآن الكريم غير ذلك .

وإذا كان المعنى الفعلي يدل على تجدد وحدوث ، والمعنى الاسمي يدل على ثبوت وتحقيق فإننا بذلك نلحظ شيئا من سر تعبير القرآن الكريم بالاسم "باق" عندما تحدث عما عــند الله فــي مقــابل المضارع "ينفد" عندما تحدث عما عند الناس . وذلك لإرادة معنى الثبوت والتحقيق والتأكيد على أن ما عند الله باق لا ينفد .

يقــول أبو السعود : "وما عند الله باق للإيذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه" [2]

*يقول تعالى : إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ (٩٥)[3] لنا أن نتساءل عن سر مجيء اسم الفاعل "مخرج" فــي مقــابل الفعل "يخرج" وكان يمكن للعبارة أن تكون : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي . كما في قوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ [4] يقــول الزمخشري : " فإن قلت : كيف قال : مخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحي من الميت ؟ قلت عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل ، ويخرج

١- النحل ٩٦ .

٢- تفسير أبي السعود ٥ / ٢٢٥ .

٣- الأنعام ٩٥ .

٤ - الروم ١٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحـــي مـــن الميـــت موقعه موقع الجملة المبنية لقوله فالق الحب والنوى لأن فلق الحب والـــنوى بالنـــبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي في حكم الحيوان[١] .

وهكـــذا كان التخريج عند أبي حيان يقول : وعطف قوله ومخرج على قوله فالق الحـــب والـــنوى اســـم فاعل على اسم فاعل ولم يعطفه على يخرج لأن قوله فالق الحب والنوى من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي في حكم الحيوان[٢] .

وفـــي المقـــابل نجد من يجيز عطف اسم الفاعل (مخرج) على المضارع "يخرج" يقـــول الكرمانـــي : اسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتنوين والجر وغير ذلك يشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى ولا يجمع إذا عمل وغير ولهذا جـــاز العطف عليه بالفعل نحو قوله[٣] : "إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا" .

ويرد ابن هشام مذهب الزمخشري القائل بعطف "مخرج" على "فالق" وعدم عطفه علـــى "يخـــرج" ، بورود الثنائية بين يخرج الحي ويخرج الميت في قوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ [٤] فدل ذلك على خلاف مذهب الزمخشري [٥]

والحـــق أن عطف اسم الفاعل على الفعل في القرآن الكريم قد ورد في غير هذا الموضع ، وقد أشار الكرماني إلى قوله تعالى : (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله ... الآيـــة . وكذلك : فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيـــزِ الْعَلِيمِ(٩٦) [٦] حيث عطف الفعل "جعل" على اسم الفاعل "فالق" ، وقد ذهب ابن

١- الكشاف ٣٣٨ .

٢- البحر المحيط ٤ / ١٨٩ .

٣- أسرار التكرار في القرآن ١ / ٧١ .

٤- الروم ١٩ .

٥- مغنى اللبيب ١ / ٧٧٣ .

٦- الأنعام ٩٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عطية إلى جواز ذلك وحجته أن "فالق" بمعنى الماضي ، فكأن اللفظ : فلق الإصباح وجعل[1] .

ومن المفسرين من اجتهد في الوقف على الغرض الدلالي من وراء مجيء الاسم في مقابل الفعل ، يقول الرازي : "إن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلا في كتاب دلائل الإعجاز فقال : قوله : هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء ، إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله يرزقكم ، لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالا فحالا وساعة فساعة ، وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ [2] فقوله باسط تفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة .

إذا ثبت هذا فيمكن أن نقول : الحي أشرف من الميت فوجب أن يقول الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل وعن الثاني بصيغة الاسم[3] .

والحق أن استعمال الاسم "مخرج"لا يخلو من دلالة التوكيد ، والثبوت ، لكن أيكون اسم الفعل "مخرج" في مقابل الفعل "يخرج" أم في مقابل اسم الفاعل "فالق" ؟

إن السياق يحتمل عطف "مخرج" على "فالق" ، فيكون التركيب : "فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت" على أن يكون الكلام إلى هنا وحدة تركيبية واحدة ، ثم يأتي "ومخرج الميت من الحي" وعلى ذلك يكون "يخرج الحي من الميت" داخلا في "فالق الحب والنوى" على سبيل البيان والتوضيح .

ويحتمل السياق عطف "مخرج" على "يخرج" فيكون للكلام الوحدات التركيبية التالية : "فالق الحب والنوى" و "يخرج الحي من الميت" و "مخرج الميت من الحي" .

ويؤيد هذا الاحتمال أمور منها :

١- المحرر الوجيز ٢ / ٣٢٦ .

٢- الكهف ١٨ .

٣- التفسير الكبير ١٣ / ٧٦ ، ٧٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١- ورود "يخرج الحي من الميت" في مقابل "يخرج الميت من الحي" في آية أخرى من القرآن الكريم .

٢- جعل "يخرج الحي من الميت" تفسيرا لفالق الحب والنوى فيه تضييق للدلالة ؛ لأن إخراج الحي من الميت له صور أوسع بكثير من فالق الحب والنوى .

*قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(٣٣) [١]

نلاحظ استعمال اسم الفاعل "معذبهم" في مقابل الفعل "ليعذبهم" . والفرق بين الاستعمالين قد أتاح توكيد النفي الواقع في كان باللام الداخلة على الفعل في "ليعذبهم" وليس كذلك في جملة "ما كان الله معذبهم" فلا يوجد فيها إلا النفي بها .

يقول أبو حيان : انظر إلى حسن مساق هاتين الجملتين ، لما كان كينونته فيهم سببا لانتفاء تعذيبهم أكد خبر كان باللام على رأي الكوفيين ، أو جعل خبر كان الإرادة المنفية على رأي البصريين ، وانتفاء الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب . ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام ، بل جاء خبر كان قوله "معذبهم" فشتان ما بين استغفارهم وكينونته ﷺ فيهم[٢] .

والمستغفرون في الآية الكريمة قيل في حقهم : هم المسلمون الذين بين أظهر الكفار ممن تخلف عن رسول الله من المستضعفين [٣] ، وقيل : المقصود بهم المشركون ، فقد روي أنهم كانوا يقولون في الطواف : غفرانك[٤] .

ومهما يكن الأمر فإن انتفاء عذابهم حال كون الرسول بينهم أقوى من انتفاء العذاب عنهم حال استغفارهم أو استغفار من بينهم .

* يقول تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى[٥] .

١- الأنفال ٣٣ .
٢- البحر المحيط ٤ / ٤٨٣ .
٣- الكشاف ٤١١ .
٤- فتح القدير - الشوكانى ٣٠٤/٢
٥- النساء ١٤٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نلاحظ استعمال الفعل "يخادعون" في حق المنافقين في مقابل اسم الفاعل خادعهم في حق المولى سبحانه وتعالى ونلحظ كذلك أن اسم الفاعل ليس مشتقا من "يخادع" وإنما هو من "خدع" الدال على الغلبة . بخلاف "خادع" الدال على القيام بأعمال الخداع ، وليس فيه دلالة الغلبة ، يقول الزمخشري : "يخادعون الله ، يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر وهو خادعهم ، وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال يأس ونقمة ورعب دائم ، والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه"[١] .

*يقول تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)[٢] نلحظ مجيء اسم الفاعل "نائمون" في مقابل المضارع "يلعبون" وذلك لأن الاشتغال باللعب والمقصود به الاشتغال بما لا يجدي عليهم – يعنى أنهم مشتغلون بأفعال متجددة شيئا فشيئا في ذلك الوقت ؛ لذلك عبر بالمضارع "هم يلعبون" وليس كذلك "نائمون" الذي فيه معنى الثبات واللزوم لذلك جاء بصيغة اسم الفاعل[٣] .

*يقول تعالى : وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣)[٤]

نلاحظ استعمال الجملة الاسمية "انتم صامتون" في مقابل الجملة الفعلية "دعوتموهم" ، وكان يمكن للتركيب أن يكون فعلية في مقابل فعلية ، فيكون "أدعوتموهم" أم صمتم"[٥] .

ويرى أبو السعود أن الجملة الاسمية في معنى الفعلية ، معطوفة علي الفعلية لأنها في قوة أم صمتم ، عدل عنها للمبالغة في عدم إفادة الدعاء[٦] .

١- الكشاف ٢٦٦ .

٢- الأعراف ٩٧ – ٩٨ .

٣- أنظر في ذلك البحر المحيط ٤ / ٣٥١ .

٤- الأعراف ١٩٣ .

٥ التبيان في إعراب القرآن للعكبرى ١ / ٦٠٨ وروح المعانى ٢٥ / ٩٠ .

٦- تفسير أبي السعود ٣ / ٣٠٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذكـــر أبو حيان عن ابن عطية أن ذلك من قبيل عطف الاسم على الفعل ، ورده بأنـــه ليس من عطف الاسم على الفعل ، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية [١]

ويفسر الزمخشري ثنائية الجملة الاسمية في مقابل الفعلية ، بقوله فإن قلت : هلا قـــيل أم صمتم ؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية ؟ قلت : لأنهم كانوا إذا حز بهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ، كقوله : إذا مس الإنسان ضر .

فكانـــت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتموهم ، فقيل إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم[٢] .

إذن حـــدث العدول عن الفعلية إلى الاسمية في قوله تعالى :"أم أنتم صامتون" في مقـــابل "سواء عليكم أدعوتموهم" لما في "أنتم صامتون" من دلالة قوية على عدم استجابة الدعـــاء وأنـــه لـــم يغير من الواقع شيئا ، هذا من جانب المدعو من غير الله ومن جانب هـــؤلاء الداعين فإن صمتهم مساوٍ لدعائهم ، وعبر بالاسمية في حق الصمت ليدلك على أنها حالة ملازمة وثابتة فيهم كلما توجهوا بالدعاء إلى آلهتهم .

*يقول تعالىَ : قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)[٣]

نلاحـــظ وضـــع الجملـــة الاسمية المنسوخة بكان "تكون أول من ألقى" في مقابل الجملـــة الفعلية "تلقى" وكان من الممكن وضع فعلية في مقابلة فعلية ، فيكون التعبير : إما أن تلقى وإما أن نلقى .

إن المقابلـــة فـــي ذاتهـــا تدل على التخيير "خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للأدب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام من مخايل الخير ورزانة الرأي وإظهار للجلادة بإراءة أنه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع ما في حيزها منصوب بفعل

١- البحر المحيط ٤ / ٤٣٩ .

٢- الكشاف ٤٠٠ .

٣- طه ٦٥-٦٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضـــمر أو مـــرفوع بخـــبرية مبتدأ محذوف أي اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا أو الأمر إما إلقاؤك أو إلقاؤنا"[١] .

صـــحيح أن الأمـــر يـــنطوي على تخييرهم سيدنا موسى ، لكن لنا أن نقف عند العدول بين الجملتين المتقابلتين ، ونحاول تفهم سر مجيء إحداهما فعلية والأخرى أسمية.

وقـــبل التعلـــيق على هذه الآية الكريمة تجدر الإشارة إلى آية أخرى في القرآن الكريم في سورة الأعراف تتحدث عن هذا التخيير من السحرة لسيدنا موسى عليه السلام ، يقول تعالى : قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين[٢]

وبالنســـبة لهـــذه الآيـــة الأخيرة يلحظ الزمخشري في توكيد الضمير هم المستتر بالمنفصـــل نحن في قولهم : "تكون نحن" وكذلك تعريف الخبر "الملقين" ما يدل على رغبتهم فيً أن يلقوا قبله[٣]

إن مـــا لحظة الزمخشري موجود بشكل أساسي في اختيار الجملة الاسمية "تكون أول من ألقى" في آية سورة طه و "تكون نحن الملقين" في آية سورة الأعراف ، في مقابل الجملة الفعلة "تلقى" في الآيتين . فدلالة الاسمية على الثبوت واللزوم تدل على سر اختيار السحرة المتحدثين لها في حقهم في مقابل الفعلية في حق سيدنا موسى عليه السلام .

"وقـــد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي[٤] .

*يقول تعالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩)[٥]

١- تفسير أبي السعود ٦ / ٢٦ .

٢- الأعراف ١١٥ .

٣-الكشاف ٣٧٨ .

٤- الكشاف ٣٧٨ .

٥- هود ٦٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نلاحظ العدول بين قول ضيف إبراهيم (سلاما) بالنصب مما يدل على أن المحذوف فعل ، فالجملة فعلية ، وبين قول إبراهيم عليه السلام (سلام) بالرفع مما يدل على أن المحذوف اسم ، فالجملة اسمية .

يقول أبو حيان : انتصب سلاما على إضمار فعل ، أي : سلمنا عليك سلاما ... وسلام خبر لمبتدأ محذوف أي : أمري أو أمرك سلام ، أو مبتدأ محذوف الخبر أي : عليكم سلام[١] .

لكن ما السر وراء هذا العدول الذي وقعت فيه الاسمية في مقابل الفعلية وقد كان من الممكن أن يكون الاثنان فعلية أو اسمية ؟

فعلى الأول يكون التعبير : "قالوا سلاما قالوا سلاما" وعلى الثاني يكون : قالوا سلام قالوا سلام وقد وردت قراءة بالرفع فيهما وبالنصب لكن يبقى للعدول من النصب إلى الرفع دلالة يجدر الوقوف [٢] .

يقول أبو حيان : ونصب سلاما يدل على التجدد ، ورفع سلام يدل على الثبوت والاستقرار[٣] .

ويقول أبو السعود : فقالوا سلاما أي نسلم عليك سلاما قال أي إبراهيم سلام ، أي عليكم سلام ، عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات و الدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام أحسن من تحيتهم[٤] .

وما قدمه أبو حيان وأبو السعود من تفسير للعدول من النصب إلى الرفع في تحية سيدنا إبراهيم لضيوفه يبنى على أسس لغوية هي ما تنطوي عليه كل من الجملة الاسمية والفعلية من دلالات ، ونضيف إليه أن الموقف الذي كان فيه سيدنا إبراهيم مع ضيوفه ، من حيث كان خائفا منهم هو ما دفعه إلى أن يحييهم بتحية أفضل من تحيتهم ، فقد أراد أن يجعل السلام أمراً ثابتا لازما بينهم ، فهو أحوج إلى هذا الشعور مع هؤلاء الذين يجهلهم.

١- البحر المحيط ١ / ٢٤١ ، ٢٤٢ .

٢- تفسير أبي السعود ٨ / ١٣٩ .

٣- البحر المحيط ١ / ٢٤٢ .

٤- تفسير أبي السعود ٨ / ١٣٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد عبر القرآن نفسه عن هذا المعنى ، في قوله تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(٥١)إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ(٥٢)[١]

وقد وقعت جملة "إنا منكم وجلون" موقع جملة "قال سلام" الواردة في الآية السابقة، وذلك يعضد المذهب السابق من أن اختيار الرفع في "قال سلام" فيه دلالة على النفس الخائفة التي تتمنى السلام لازما محققا .

*يقول تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ(٧٢)[٢]

نلاحظ في الآية السابقة مجيء الفعل "يؤمنون" غير معتمد على الضمير "هم" ومجيء الفعل "يكفرون" معتمد على الضمير هم وعلى ذلك تكون الجملة الأولى فعلية، والثانية اسمية كبرى تتكون من المبتدأ الضمير "هم" والخبر جملة "يكفرون" .

والإيمان بالباطل هو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة .. ونعمة الله المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييزهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول . وقيل : الباطل ما يسول الشيطان[٣] .

يرى الألوسي أن بناء يكفرون على الضمير "هم" يفيد التوكيد وتقوية الحكم[٤] .

ويرى الكرماني أن السبب في مجيء "هم" في "هم يكفرون" وفي سورة العنكبوت "يكفرون" بدون "هم" لأن في هذه السورة اتصل : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ(٧٢) ثم عاد إلى الغيبة فقال "أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون" فلابد من تقييده بهم لئلا تلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالياء[٥] .

١- الحجر ٥٢ .

٢- النحل ٧٢ .

٣- الكشاف ٥٧٨ .

٤- روح المعاني ١٤ / ١٩١ .

٥- أسرار التكرار في القرآن ١ / ١٢٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الواضح أن الفرق بين الاثنين هو ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من فروق، ففـــي .. بالـــباطل يؤمنون تركيب جملة فعلية ، يحمل معنى التجدد . وفي "بنعمة الله هم يكفـــرون" تركيب جملة اسمية يحمل معنى الثبوت واللزوم ، وهذا المعنى أقوى وأشد من المعـــنى الموجـــود فـــي الجملة الأولى ، وكأن القرآن ينكر على هؤلاء كفرهم بنعمة الله وكذلـــك يـــنكر إيمانهم بالباطل واستنكار القرآن كفرهم بنعمة الله أشد وأقوى ، فاختار له الجملـــة الاســـمية ؛ فنعمة الله سبحانه واضحة بينة لا لبس فيها ولا خفاء ولا يكفر به إلا الجاحدون المنكرون .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العدول بين الحذف والذكر

اثر الذكر والحذف للمفعول به في المعني :

* يقول تعالى : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٤)[١]وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥)

ويقول : وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٨)وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٩)[٢]

نلاحظ ذكر المفعول في "أبصرهم" وحذفه من الآية الثانية "أبصر" .

يقول الزمخشري شارحا معنى الآيتين : "أبصرهم" ، وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة ، والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة .. (وأبصر فسوف يبصرون) قيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة[٣] .

وجاء في فتح القدير للشوكاني : (وأبصر فسوف يبصرون) . حذف مفعول أبصر هاهنا وذكره أولا ، إما لدلالة الأول عليه ، فتركه هنا اختصارا ، أو قصدا إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف ، وقيل هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة والجملة الأولى المراد بها عذابهم في الدنيا ، وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد بل من باب التأسيس[٤] .

ويشرح الكرماني معنى التوكيد المحتمل في الآية الثانية المحذوف منها ضمير المفعول بأنه لما نزل "أبصرهم" قالوا متى هذا الذي توعدنا به فأنزل الله "أفبعذابنا يستعجلون" كرر توكيدا[٥] .

١- الصافات ١٧٤ ، ١٧٥ .

٢- الصافات ١٧٨ – ١٧٩ .

٣- الكشاف ٩١٧ .

٤- فتح القدير للشوكاني ٤ / ٤١٦ .

٥- أسرار التكرار في القرآن ١ / ١٨١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن سياق الآيتين فيه شيء من الاختلاف فالآية الأولى "وأبصرهم فسوف يبصرون" وردت بعد قوله تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩)[١] "وأبصرهم فسوف يبصرون" فالسياق يتحدث عن الغلبة في الدنيا ، لذلك قال الله لنبيه "أبصرهم" أي أبصرهم وما ينزل بهم من هزيمة وخزي .

والآية الثانية التي حذف منها ضمير المفعول به وردت في سياق الحديث عن عذاب الله واستعجال الكفار له ، يقول تعالى : "أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون" .

والعذاب الذي تتحدث عنه الآية الكريمة ليس خاصا بعذاب الدنيا وحده وإنما يشمل عذاب الدنيا والآخرة ، لذلك جاء "وأبصر" بحذف الضمير لإفادة العموم ، فيحتمل أبصرهم أو أبصر عذابهم .

خصوصية ذكر الواو وحذفها في الدلالة بين العطف والبدل :

*يقول تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩)[٢]

ويقول تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(٦)[٣]

نلاحظ في الآية الأولى قوله تعالى : "يسومونكم سوء العذاب يذبحون" وفي الآية الثانية "يسومونكم سوء العذاب ويذبحون" بالواو . وكأن يذبحون في الأولى بدل من يسومونكم ، وفي الثانية معطوفة والعطف يقتضي المغايرة .

ومثل ما ورد بدلا قوله تعالى : إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(٤)[٤]

١- البقرة ٤٩ .
٢- البقرة ٤٩ .
٣- إبراهيم ٦ .
٤- القصص ٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول الزمخشري معلقا على الآية الأخيرة "يستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا ، أو كلام مستأنف . ويذبح بدل من يستضعف[1] .

حاول كثير من المفسرين الوقوف على سر عدم مجيء الواو في الآية الأولى في قوله تعالى "يسومونكم سوء العذاب يذبحون" وسر مجيئها في الآية الثانية ، ولم تخرج تفسيراتهم عن كون "يذبحون" بدون واو بدلا وتفسيراً ليسومونكم ، وبالواو يكون "يذبحون" غير "يسومونكم" لأن الواو تقتضي المغايرة .

يقول الزمخشري : "الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبت جعل التذبيح غيره لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر"[2] .

ويقول ابن عطية : "غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله "ويذبحون" ، وفي البقرة "يذبحون" بغير واو العطف فهناك فسّر سوء العذاب بأنه التذبيح والاستحياء ، وهنا دل بسوء العذاب على أنواع غير التذبيح والاستحياء وعطف التذبيح والاستحياء عليها[3] .

ويلمس الكرماني في هذه المسألة أن الآية التي ورد فيها "يذبحون" بغير واو هي من كلام الله عز وجل ، فهو سبحانه لم يرد تعداد المحن عليهم . والآية التي وردت فيها بالواو هي من كلام موسى فهو يعدد المحن عليهم ، وكان مأموراً بذلك في قوله : وذكرهم بأيام الله[4] .

وما ذهب إليه الكرماني يدل على عمق في التحليل النحوي ؛ لأنه أخذ في الاعتبار النظر إلى المتكلم عند تحليل الكلام ، فإذا كانت إحدى الآيات من كلام الله عز وجل ، والثانية من كلام سيدنا موسى حكاها المولى سبحانه ، فلنا أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار عند محاولة فهم سر مجيء واحدة بالواو والأخرى بغيرها .

١- الكشاف ١٧٩٣ .

٢- الكشاف ٢ / ٥٠٨ .

٣- المحرر الوجيز ٣ / ٣٢٥ .

٤- أسرار التكرار في القرآن للكرماني ١ / ٢٧ والآية ٦ من سورة إبراهيم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسيدنا موسى يؤلف قلوب قومه على طاعة الله ، ويذكرهم بما أنعم الله عليهم به ، لذلك كان استعماله الواو في "ويذبحون" ليعدد أفضال الله ومنه كما لو كنت تحدث شخصا وتشكو إليه من آخر أساء إليك ، فتقول ضربني وشتمني وأهانني وقال ما لا يجوز .. إلى آخر ذلك .

فلو تأملنا الكلمات السابقة لوجدنا أن قال لي ما لا يجوز داخله في شتمني ، والجميع يدخل في أهانني لكن المتحدث أراد التأثير في المستمع بتعداد الأحداث وإن كان بعضها بدلا من بعض أو داخلا فيه .

دلالة واو الثمانية :

يقول تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ[1]

نلاحظ قوله تعالى : "ثلاثة رابعهم" و"خمسة سادسهم" ثم قوله : "سبعة وثامنهم" ، بدون واو في العددين الأولين ثم بواو في الثالث .

يذهب بعض المفسرين إلى أن دخول الواو بين سبعة وثامنهم جائز ؛ لأنها لم تدخل في العددين الأولين ودخلت في الثالث[2] .

وإذا انتقلنا من مقولة الجواز إلى البحث عن سر دخولها في العدد الثالث دون الأولين فإننا نجد الزمخشري قد عنى بمحاولة فهم هذا العدول ، يقول "فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأولين ؟ قلت : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك : جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه قوله تعالى : وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت ، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما غيرهم ، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله : رجما بالغيب ، وأتبع القول الثالث قوله : ما يعلمهم إلا

١- الكهف ٢٣ .

٢- التفسير الكبير للرازي ١٢ / ١٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليل ، وقال ابن العباس حين وقعت الواو انقطعت العدة ، أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم[١] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من النحويين والمفسرين ، يقول أحدهم : "إن الواو لم يدخل هنا دون ما قبله إلا لفائدة وهي التقدير ، لأن عدتهم سبعة ، فقوله في الجملتين الأوليين : رابعهم كلبهم ، سادسهم كلبهم ، هما من تتمة المقول ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى رجما بالغيب . والواو في قوله تعالى : وثامنهم كلبهم قائمة مقام التصديق لذلك تقديره نعم وثامنهم كلبهم ، كما إذا قال القائل : زيد كاتب ، فتقول له : وشاعر ، ويكون ذلك تحقيقا لقوله الأول ولذلك لم يقل سبحانه بعده رجما بالغيب وقال : قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : أنا من القليل . ونظير هذا قوله تعالى : وكذلك يفعلون ، بعد قوله : وجعلوا أعزة أهلها أذلة"[٢] .

ويرى ابن جني أن ظهور الواو مع الجملة الثالثة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأوليين لتتجنس الجمل في أحوالها والمراد بها ، يقول : "فكأنه والله أعلم : سيقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم ويقولون خمسة وسادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم إلا أن الواو حذفت من الجملتين المتقدمتين ، لأن الذي فيهما من الضمير يعقدهما بما قبلها لا عقد الوصف ولا عقد الحال لما ذكرناه ، ولكن عقد الإتباع لا سيما وقد ظهرت الواو في الجملة الثالثة فدل ذلك على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين[٣] .

وما ذهب إليه الزمخشري وغيره هو الأقوى والأرجح في التحليل لهذه الجمل ؛ لأنه يعتبر دلالة السياق وما اتبع هذه الجمل من تعليقات منه سبحانه ، وكذلك استعمال الواو في "وكذلك يفعلون" دالة على مراد ما بعدها وتوكيده .

١- الكشاف ٢ / ٦٦٧ .

٢- الفصول المفيدة في الواو المزيدة ١ / ١٤٤ .

٣- سر صناعة الإعراب ٢ / ٦٤٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دلالة الجار والمجرور بين الحذف والذكر :

في قصة موسى مع الرجل الصالح الذي صحبه على أن يعلمه مما عُلِّم ، اشترط العبد الصالح على موسى أن لا يسأله عن شيء حتى يحدثه هو عنه ولكن موسى عليه السلام لم يصبر وبادره بالسؤال والاستفسار عما وقع أولا وهو خرق السفينة ، فقال العبد الصالح : قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(٧٢)[١]

وفي الثانية عندما سأل موسى عليه السلام عن الغلام الذي قتل ، قال العبد الصالح :

" قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(٧٥)[٢]

نلاحظ قول العبد الصالح لسيدنا موسى في المرة الأولى معاتباً : "ألم أقل إنك" وفي المرة الثانية قال : "ألم أقل لك" بزيادة "لك" وقد يكون ذلك راجعا إلى زيادة نبرة العتاب كما ذهب إليه كثير من المفسرين .

يقول الزمخشري : "فإن قلت : ما معنى زيادة لك ؟ قلت : زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية"[٣] .

ويقول الكرماني : "قوله ألم أقل إنك وبعده ألم أقل لك إنك ؛ لأن الإنكار في الثانية أكثر ، وقيل أكد التقدير الثاني بقوله لك ، كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعني"[٤].

ويرى الرازي أن زيادة لك تؤكد التوبيخ ، وعندها قال موسى : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته ، وهذا كلام نادم شديد الندامة"[٥] .

١- الكهف ٧٢ .

٢- الكهف ٧٥ .

٣- الكشاف ٦٢٦ .

٤- أسرار التكرار في القرآن ١ / ١٣٤ .

٥- التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٣٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدلالة في الفعل بين استطالة حروفه وقصرها :

قريب من الآية السابقة ما ورد كذلك في قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح لما قرر العبد الصالح مفارقة سيدنا موسى لعدم صبره في الثالثة ، فقال له : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٧٨)[١]وبعد أن أخبره قال له : ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٨٢)[٢]

ونلاحظ استعمال الفعل "تستطع" في الأول والفعل "تسطع" بدون تاء في الثاني .

الفعل "تسطع" هو نفسه الفعل "تستطع" ، وهو مضارع اسطاع بهمزة الوصل وأصله استطاع على وزن استفعل ثم حذفت تاء الافتعال تخفيفا وبقيت الطاء[٣] .

إذن حذف التاء للخفة ، لأن التاء قريبة المخرج من الطاء ، وقرئ فما اصطاعوا بقلب السين صادا ، وذلك لقرب المخرج وسهولة النطق .

لكن هل نقول إن حذف التاء للخفة فحسب أم للأمر غرض دلالي ؟ يقول ابن كثير : "وقوله ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا" أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعا ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء . ولما أن فسّره له وبينه ووضحه وأزال المشكلة قال تسطع . وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلا ، فقال سأنبئك بتأويل ما لم تستطع ، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف ، كما قال فما اسطاعوا أن يظهروه وهو الصعود إلى أعلاه ، وما استطاعوا له نقبا ، وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظا ومعنى والله أعلم[٤] .

زيادة كاف التشبيه وحذفها :

يقول الله تعالى : وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣)[٥]

١- الكهف ٧٨ .

٢- الكهف ٨٢ .

٣ - روح المعاني للآلوسي ١٦ / ١٤ .

٤- تفسير ابن كثير ٣ / ١٠١ .

٥- آل عمران ١٣٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*ويقـــول تعـــالى : سَـــابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِـــدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١)[١] .

نلحـــظ زيادة الكاف في الآية الثانية في قوله تعالى : "عرضها كعرض السماوات والأرض" وعدم ورودها في الآية الأولى .

قـــيل في العرض أنه مساحتها في السعة كما قال تعالى : "فذو دعاء عريض" أو العرض خلاف الطول ، فإذا وصف العرض بالبسطة عُرف أن الطول أبسط وأمد[٢] .

وفـــي قوله تعالى "عرضها كعرض السماء والأرض" قال السدى : كعرض سبع سماوات وسبع الأرضين ، وذكر العرض دون الطول ، لأن كل ما له عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله[٣] .

ويرى الزمخشري أن الآيتين بمعنى واحد ، يقول : "عرضها السماوات والأرض، أي عرضـــها كعرض السماوات والأرض ، كقوله : عرضها كعرض السماء والأرض . والمراد وصفها بالسعة والبسطة ، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه[٤] .

إن ما أراه أن الآيتين ليستا بمعنى واحد ، وأن مدلول "كعرض" ليس مساوياً تماماً لـــ "عرض" بدون كاف كما ذهب إليه كثيرون فالآيتان مختلفتان من جهات عدة :

أولاً : فـــي الآيـــة الأولـــى التي ذكر فيها العرض بدون كاف قال الله في أولها : "وسارعوا" وفي الآية الثانية المذكور فيها العرض بعد الكاف قال : "سابقوا" .

ثانياً : الجـــنة التـــي عرضـــها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، والجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للذين أمنوا بالله ورسوله .

أرى – والله أعلـــم – أن الجـــنة التي عرضها السماوات والأرض هي أوسع من التي عرضها كعرض السماوات والأرض ، لأن الأولى العرض فيها هو مجموع مساحة

١- الحديد ٢١ .

٢- البحر المحيط ٨ / ٢٢٤ .

٣- الكشاف ١٠٨٤ .

٤- السابق ١٩٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السماوات والأرض ، والثانية عرضها فقط عرض السماوات والأرض ، لذلك كانت الأوسع للمتقين الذين قال الله فيهم : "إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر" . والثانية كانت للذين أمنوا بالله ورسوله والمؤمن لابد له من صفات وأعمال حتى يرقى لدرجة التقى .

حرف النفي " لا " بين إفادة النفي والإثبات بعد (ما منعك) :

يقول تعالى : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ(٧٥)قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦)[١]

ويقول تعالى : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)[٢]

نلحظ زيادة "لا" في الآية الثانية في "ألا تسجد" وعدم زيادتها في الأولى "أن تسجد".

ويأخذ كثير من المفسرين من الآية الأولى الواردة بغير "لا" دليلا على زيادتها في الآية الثانية ، يقول الآلوسي : "ما منعك ألا تسجد" المشهور أن لا مزيدة بدليل قوله تعالى سبحانه في آية أخرى "ما منعك أن تسجد" . وقد جاءت كذلك في قوله سبحانه : "لئلا يعلم أهل الكتاب ..." ويقول أبو السعود : "ما منعك ألا تسجد" أي أن تسجد كما وقع في سورة ص ولا مزيدة مؤكدة[٣] .

ويقول الرازي : لا صلة ومثله ما منعك ألا تسجد معناه أن تسجد ، وكذلك قوله : وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ(٩٥)[٤] أي يرجعون فهكذا هاهنا التقدير[٥] .

١- ص ٧٥ .

٢- الأعراف ١٢ .

٣- تفسير أبي السعود ٣ / ٢١٦ .

٤- الأنبياء ٩٥ .

٥- التفسير الكبير للرازي ١٣ / ١١٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفائدة زيادة "لا" توكيد الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى : "لئلا يعلم أهل الكتاب" ، منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود ، وقيل الممنوع عن الشيء مصروف إلى خلافه ، فالمعنى ما صرفك إلى أن لا تسجد[١] .

وفـــي الآية أراء أخرى ، مثلما نقله الألوسي عن الراغب وهو قوله : المنع يقال في ضد العطية ، كرجل مانع ومناع أي بخيل ، ويقال في الحماية ، ومنه مكان منيع وقد منع ، وفلان ذو منعة أي عزيز ممتنع على من يرومه والمنع في الآية من الثاني ، أي ما حماك عن عدم السجود إذ أمرتك بالسجود[٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن "لا" قد وردت مع غير الآيات السابقة ، كقوله تعالى : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣٢)[٣]

* وقـــوله تعالى في قصة سيدنا موسى : قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢)أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي(٩٣)[٤]

إذا كـــان القـــرآن الكريم يفسر بعضه بعضا وقد أخذ كثير من المفسرين من قوله تعالى : "ما منعك أن تسجد" دليلا على زيادتها في قوله "ما منعك ألا تسجد" فإننا يمكن أن نـــأخذ مـــن قوله تعالى "ما لك ألا تكون مع الساجدين" دليلا على أن "ما منعك" في معنى الاستفهام "ما لك" لذلك جاز مجيء "لا" مع تسجد .

وكذلك نلحظ أن "ألا تسجد" حكاية لحال إبليس عندما رفض السجود ، فهي يعقبها "إذ أمرتك" ومعلوم أنه مأمور بالسجود ، لا بعدمه . والآية الثانية التي لم تأت معها "لا" لم يعقـــب فعل السجود إشارة إلى الأمر ، فقال تعالى : "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" وكذلـــك عـــندما وردت "لا" في قول موسى : "ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن" فإنها معقبة بقوله : "أفعصيت أمري" ومن الوضوح بمكان أنه أمره بالإتباع ، لا بعدمه .

---

١ تفسير أبي السعود ٣ / ٢١٦ .

٢- روح المعاني للألوسي ٨ / ٨٨ .

٣- الحجر ٣٢ .

٤- طه ٩٢-٩٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. ولما كانت "لا" الداخلة على الفعل قد عُقب بعدها بما يفيد الأمر جاز وقوعها بعد "ما منعك" وصارت "لا" والفعل استحضار أو حكاية لموقف إبليس ، توبيخا له وهذا وجه محتمل والله أعلم .

دلالة التعدي بالهمزة والتضعيف :

يقول تعالى : وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣)[١]

نلحظ السؤال في قول زوج النبي ﷺ : من أنبأك هذا بصيغة "أفعل" المتعدي بالهمزة ، ونلحظ جواب النبي في قوله : "نبأني العليم الخبير" بصيغة "فعّل" المضعف فهل بين "أنبأك" و"نبأ" خلاف ، أو أنهما بمعنى واحد ؟

يقول أبو جعفر النحاس : "نبأ وأنبأ بمعنى واحد فجاء باللغتين جميعا[٢] .

ويخالف في ذلك الأصفهاني فيرى أن "نبأ" بالتضعيف تدل على معنى التوكيد والتحقيق ، يقول : "يقال نبأته وأنبأته قال تعالى : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١)[٣] وقال : أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ[٤]، وقال : نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٤٣)[٥] _ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ[٦]ونبأته أبلغ من أنبأته وقوله : فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا[٧] يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(١٣)[٨] ويدل على ذلك قوله : "فلما نبأها به

١- التحريم ٣ .

٢- إعراب القرآن للنحاس ٤ / ٤٦١ .

٣- البقرة ٣١ .

٤- البقرة ٣٣ .

٥- الأنعام ١٤٣ .

٦- التوبة ٩٤ .

٧- فصلت ٥٠ .

٨- القيامة ١٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت من أنبأك هذا قال نبأني العلم الخبير" ولم يقل أنبأني ، بل عدل إلى نبأ الذي هو أبلغ تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله[١] .

قد يبدو ترادف بين "أنبأ" و"نبأ" وهذا ما ذهب إليه كثيرون ممن تناولوا هذه المسألة ، يقول سيبويه :"وقد يجيء فَعَلت وأَفعلت في معنى واحد مشتركين ، كما جاء فيما صيّرته فاعلا ونحو ذلك : وعزت إليه وأوعزت إليه وخبّرت وأخبرت ، وسمّيت وأسميت[٢] .

والذي أطمئن إليه أن "نبأ" الواردة في جواب النبي ﷺ على زوجه فيها معنى التوكيد ، كما ذهب إليه الزمخشري وغيره .

يقول تعالى : قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ(١١٤)قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ(١١٥) [٣]

نلاحظ دعاء سيدنا عيسى بقوله "أنزل" من أنزل ، المتعدي بالهمزة ، وإجابة الله عز وجل دعاءه بقوله "إني منزلها" من الفعل "نزّل" المتعدي بالتضعيف . وكان يمكن أن يقول "إني مُنْزِلها" من "أنزل" فيكون الإجابة كالدعاء .

يقول أبو السعود : "ورود الإجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الإفعال لإظهار كمال اللطف والإحسان ، كما في قوله تعالى "قل الله ينجيكم منه ومن كل كرب" بعد قوله "لئن أنجانا من هذه"[٤] .

فرد المولى عز وجل على دعاء نبيه بصيغة التفعيل "منزّلها" يدل على التوكيد وإجابة الدعاء وأنه سبحانه سينزّلها ، وعد ووعده الحق . وأمثله هذا في القرآن عديدة .

يقول تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ [٥]

١- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ١ / ٤٨١ .
٢- الكتاب ٤ / ٦٢ .
٣- المائدة ١١٤-١١٥ .
٤- تفسير أب السعود ٣/٩٨ .
٥- محمد ٢٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"نزّل" و "أنزل" كلاهما متعد ، لكنّ "نزّل" قد يستعمل للمبالغة وأنزل للتعدي[١] .

ولقد عالجت الفرق بين الفعلين "أنزل" و "نزّل" في استعمال القرآن الكريم في بحث مستقل[٢] خلصت فيه إلى أن صيغة "نزّل" بالتضعيف قد تستقل بمعنى التكثير والتوكيد ، وليس ذلك لأنزل المتعدي بالهمزة .

دلالة التأنيث والتذكير بين التعريف والتنكير والتقديم والتأخير :

يقول تعالى : لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩)[٣]

نلحظ مجيء "إناثا" نكرة في مقابل "الذكور" "معرفة" ، ومن الممكن أن تكون هذه الثنائية إما بتعريف الاثنين أو تنكيرهما .

يقول الزمخشري : "فإن قلت : لم قدم الإناث أو لا على الذكور مع تقدمهم عليهن ثم رجع فقدمهم ؟ ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث ؟

قلت : لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده[٤] . ثم عقبة بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم ، ولبلىّ الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء وأخر الذكور . فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم"[٥] .

١- أسرار التكرار في القرآن للكرماني ١٩٤/١ .

٢- للباحث : القرآن الكريم بين الإنزال والتنزيل تحت الطبع .

٣- الشورى ٤٩ .

٤- يقصد قوله تعالى في الآية السابقة على هذه : وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور .

٥- الكشاف ٩٨٢ وانظر تفسير النسفي ٤ / ١٠٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقــول الــرازي : "والسؤال الثاني وهو قوله : لم عبر عن الإناث بلفظ التنكير وعــن الذكور بلفظ التعريف ؟ فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى"[١] .

وفي فتح القدير : "وتعريف الذكور بالألف واللام للدلالة على شرفهم على الإناث. ويمكن أن يقال : إن التقديم للإناث قد عارض ذلك ، فلا دلالة في الآية على المفاضلة بل هي مسوقة لمعنى آخر ، وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه : "الرجال قوامون على النساء"[٢] .

إن المقــبول في مثل هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تكلم بما عليه حال الناس من رغــبة في الذكور وعدم رغبة في الإناث ، لذلك جاء بكلمه "إناثاً" نكرة لتدل على أن الله يهــب لمــن يشــاء ذلك النوع الذي لا ترغبون فيه والذي لا يسعد أحدكم بانتمائه إليه ، مصــداقا لقوله تعالى : "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به" .

فهو يتمنى لو لم تكن تلك البشارة وكانت تلك المولودة غفلا لا تسند إليه .

أمــاَ تعــريف "الذكور" فأل هنا هي العهدية ، لما عرف عن ابن آدم من حب وتمن للذكــور ، والمعنى : يهب لمن يشاء الذكور الذين تحبونهم وتتمنونهم ، ويسعد أحدكم لو بشر به .

دلالة إفراد الفعل " تشقى " دون تثنيته :

يقــول تعــالى : فَقُلْــنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧)[٣]

نلاحــظ عــود الضمير في "لا يخرجنكما" إلى آدم وزوجه ، ثم في "تشقى" كان الضمير لآدم وحده دون زوجه . وكان من الممكن عود الضمير عليهما معا فيقولون فلا تشقيا .

١- التفسير الكبير للرازي ٢٧ / ١٥٨ .

٢- فتح القدير للشوكاني ٤ / ٥٤٤ .

٣- طه ١١٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول الزمخشري : فلا يخرجنكما فلا يكونن سببا لإخراجكما ، وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكها في الخروج لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهلـــه وأميرهم شقاءهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونهـــا مع المحافظة على الفاصلة أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه[١] .

ويقول القرطبي : "إنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيا ، يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن"[٢] .

ومهما تكن صور المسؤولية الملقاة على آدم ، فإن الواضح أنها سبب خص الله له بالشقاء ، لعظم المسؤولية التي ألقيت عليه مراعاة لطبيعته وطبيعة ما أنيط به .

والقـــول بـــأن معنى "فتشقى" هو فتشقيا ، ولكنه اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر ، ونظـــيره : عن اليمين وعن الشمال قعيد ، أي : قعيدان[٣] أقول : إن هذا المذهب أو هذا التفسير تسطيح – إن صح التعبير – للمعنى ، وعدم تعميق النظرة .

إن اختصـــاص آدم بالفعل "تشقى" ينسجم وبقية الآيات ، من حيث وجه الله كلامه أولاً لآدم وعـــرفه بعـــداوة الشيطان ، ووعده بأنه لن يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ، لذلك قصـــده الشيطان بالوسوسة ، فهو يعلم أن القرار بيده ، فإن فعل تبعته حواء ، لذلك جاء الضـــمير للاثنين في قوله تعالى : فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ [٤]

ومع أن الأكل كان من آدم وزوجه ، وورد الضمير لهما كما في الآية الكريمة ، فإن فعل المعصية نسبه الله لآدم ، فقال : وعصى آدم ربه فغوى[٥] .

١- الكشاف ص ٦٦٨ .

٢- أضواء البيان للشنقيطي ٤ / ١٠٨ .

٣- ورد هذا لأي في تفسير السمعاني ٣ / ٣٥٩ .

٤- طه ١٢١ .

٥- السابقة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذلك كان نسبة الشقاء له دون حواء منسجما مع المعاني الأخرى ومع جملة الأشياء المتعلقة بآدم ، وكانت حواء له في كل ذلك تبعا ، أو هي متضمنة معه .

دلالة الواو بين ذكرها وحذفها :

يقول تعالى : وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢)وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣)[١]

نلاحظ ورود الواو في الحديث عن الجنة في قوله تعالى : حتى إذا جاءوها وفتحت" وعدم ورودها في الحديث عن جهنم فقال تعالى : حتى إذا جاءوها فتحت ، بغير واو .

يرى بعض المفسرين أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها"[٢] وجواب إذا على هذا الرأي محذوف ، والمعنى حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة فالواو للحال . وأما أبواب النار فإنها فتحت حين جاءوها فوقع قوله "فتحت أبوابها" جواب الشرط .

وقال الكوفيون : الواو في أبواب الجنة واو الثمانية لأن أبواب الجنة الثمانية . وقيل الواو زائدة وفتحت هو الجواب[٣] .

إن القول بأن الواو في "فتحت" واو الثمانية ، لأن أبواب الجنة ثمانية فيه تسطيح للدلالة ، فالأمر أعمق مما ذهب إليه هؤلاء وقد رد هذا المذهب كثيرون ، قال القفال :

١- الزمر ٧١-٧٢-٧٣ .

٢- الكشاف ٩٤٨ ، ٩٤٩ .

٣- التحصيل لعلوم التنزيل للكلبى ٣ / ٢٠٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهـذا لـيس بشـيء والدليل عليه قوله تعالى : هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر " ولم يذكر الواو في الوصف الثامن[1] .

والقول بزيادة الواو وأن "فتحت" هي جواب الشرط على تقدير عدم مجيء الواو ، فيه بعد عن الغرض الدلالي الذي من أجله وقع هذا العدول بين الثنائيتين .

والقول الراجح عندي أن الواو واو الحال حيث يمنع ذلك القول من كون "فتحت" جواب إذا فيكون الفتح قبل المجيء ، بخلاف حال المسوقين إلى جهنم ففيه "فتحت" جواب إذا والكـلام يقتضي أن فتحها إنما يكون بعد مجيئهم ، وفي وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم ، وهكذا هي حال السجون ومواضع العذاب[2] .

وجواب إذا في حق أهل الجنة محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات مـا لا يحدق به نطاق العبارات ، كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها وقال لهم [illegible] من جميع [illegible] طبتم نفسـا بمـا أتيح لكم من النعيم . فادخلوها خالدين ، كان ما كان مما يقصر عنه البيان[3].

دلالة الفعل بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول :

يقول تعالى : وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ(٨٦)رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ(٨٧)[4]

ويقـول تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٩٣)[5]

١- التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٩١ .

٢- المحرر الوجيز ٤ / ٤٢ .

٣- تفسير أبي السعود ٧ / ٢٦٤ .

٤- التوبة ٨٦-٨٧ .

٥- التوبة ٩٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نلحظ قوله عز وجل أولا : "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم" ثم قوله ثانيا "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم" ببناء الفعل أولا للمجهول ، وذكر الفاعل في الثانية .

يـــرى الكرماني أن السبب في ذلك يرجع إلى مناسبة ما تقدم فطبع على قلوبهم ، بالبناء للمجهول ، يناسب قوله "وإذا أنزلت سورة" المبني للمجهول كذلك . أما الثاني الذي ذكـــر فـــيه الفاعل وهو الله فمحمول على ما تقدم من ذكر الله تعالى مرات ، فكان اللائق وطـــبع الله . ثم ختم كل آية بما يليق بها ، فقال في الأولى : لا يفقهون ، وفي الثانية لا يعلمون ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى مجهول[1] .

الطـــبع علـــى القلوب يعني أنها لا تعي الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخـــير والفلاح ، فهم لا يفقهون مصالحهم فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الخلال التي منعتهم من منازل الرجال[2] .

لقـــد لمـــس الكرماني العلاقة بين ذكر الفاعل "الله" وختام الآية بأنهم لا يعلمون ، وكذلـــك بين حذف الفاعل وختام الآية بأنهم لا يفقهون . وأن العلم فوق الفقه ، فكان ذكره مـــع ذكر لفظ الجلالة يوحي بشدة ذلك الطبع على قلوبهم ، فهم معه لا يعلمون . وأضيف إلـــى هـــذه النظرة أن حذف الفاعل قد ورد أولاً في سياق الحديث عن أولئك الأغنياء الذين طلبوا بقاءهم مع القاعدين ، وحذف الفاعل في ذلك الموضع يمكن تفسيره على أنه :

١- تركيز على الطبع على قلوبهم في سياق ما رضوه لأنفسهم .

٢- زيـــادة في تهويل فعلتهم وأنهم لا يستحقون أن يذكر الله على أنه فاعل لأمر لهم حتى وإن كان هذا الأمر مما يكرهونه .

لذلك ضمنت الآية بأنهم لا يفقهون

وعندما عاد القرآن للفكرة ذاتها مرة أخرى فإنه أراد أن يضيف لها معاني جديدة، بذكـــره الفاعل وهو الله الموحي بأن الطبع على القلوب لا يمكن رده فهو من قوى قاهر

١- أسرار التكرار في القرآن ١ / ١٠٠ .

٢- تفسير السعدي ١ / ٣٤٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عظيم جليل ؛ لذلك ضمنت الآية بأنهم لا يعلمون شيئا ، فالطبع من الله محكم على قلوبهم، ولا يرد إلا بإرادة منه سبحانه .

يقـول تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦)خَالِدِينَ فِيهَا مَـا دَامَـتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(١٠٧)وَأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) [١]

نلاحـظ مجـيء الفعـل "شقوا" مبنيا للمعوم ، وفاعله الضمير ،في مقابل الفعل "سعدوا" المبني للمجهول ونائب الفاعل الضمير .

قراءة الجمهور بفتح الشين من "شقوا" وعن الحسن شقوا بالضم كما قرئ "سُعدوا" و"سـعدوا" قـرأها حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص "سعدوا" بضم السين ، وقرأ الباقون بفتحها[٢] .

وتعـدد القراءات بالبناء للمجهول أو المعلوم يؤدي إلى تعدد المعاني . ونحن أمام ثلاث صور لقراءة الفعلين "شقوا" و"سعدوا" :

الأولى :- بناؤهما للفاعل الضمير ، فيكون : شَقُوا وسَعِدوا .

الثانية :- بناؤهما للمجهول والضمير نائب للفاعل ، فيكون : شُقوا وسُعِدوا .

الثالثة :- بناء الأول "شَقُوا" للفاعل الضمير ، وبناء الثاني "سُعِدوا" للمجهول والضمير نائب فاعل .

وهـذه الصورة الثالثة تمثل لنا ثنائية اختلف فيها صورة التعبير ، وعلينا تأملها بما يفتح الله به .

يرى السمرقندي أن القراءة بفتح السين من سعدوا معناها الذين استوجبوا السعادة في الجنة ، والقراءة بالضم ، أي بالبناء للمجهول معناها قدر عليهم السعادة وخلقوا للسعادة ، فهم في الجنة[٣] .

١- هود ١٠٦-١٠٨ .

٢- الكشاف ٤٩٨ والبحر المحيط ٢٦٤/٥ السمرقندي ١٧٢/٢ .

٣- تفسير السمرقندي ١٧٢/٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكذلك الحال مع "شقوا" بالفتح يكون المعنى الذين استوجبوا الشقاء بما قدمت أيديهم . و"شقوا" بالضم ، يكون معناه الذين قدر عليهم الشقاء .

والثنائية الواردة بفتح الشين في "شقوا" أي ببنائه للفاعل الضمير ، وضم السين من سعدوا وجعل الضمير نائبا للفاعل ، تدل دلالة واضحة على أن الشقاء منهم أنفسهم فهم المستوجبون لما حل بهم من سوء ما قدموا وما اقترفوا ، أما السعادة فإنها لا يحصلها الإنسان إلا بمنة من الله وتوفيق منه ، لذلك ورد الفعل "سعدوا" بضم السين مبينا للمجهول لإعطاء ذلك المعنى .

وهذا يتوافق مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات تعطي معنى أن المصيبة من النفس والحسنة من الله . فكذلك الشقاء من النفس والسعادة من الله .

دلالة ذكر اللام وحذفها :

يقول تعالى : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣)إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(١٤)قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)[١]

نلاحظ قوله سبحانه أولاً "إنا إليكم مرسلون" ثم قال ثانية "إنا إليكم لمرسلون" فأكد الثاني باللام .

يقول الزمخشري : "فإن قلت : لم قيل "إنا إليكم مرسلون" أولا ، و"إنا إليكم لمرسلون" آخر ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار ، وقوله "ربنا يعلم" جار مجرى القسم في التوكيد ، وكذلك قولهم : شهد الله وعلم الله ، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم"[٢] .

١- يس ١٣-١٦ .

٢- الكشاف ٨٩٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذن الـــلام في "لمرسلون" عند كثير من المفسرين لام القسم لأن قوله "ربنا يعلم" يجـــري مجرى القسم[1] وليس ذلك في قولهم أو لا إنا إليكم مرسلون ، لأنه لم يسبق بما يشير إلى القسم .

ومـــن أجمل ما جاء في تحليل الآيات السابقة تلك الموازنة المعقودة بين تعبيرات الكفار وتعبيرات المرسلين ، وذلك أن الكفار نفوا رسالتهم بثلاثة أشياء ، أحدها قولهم : ما أنـــتم إلا بشر مثلنا ، والثاني : وما أنزل الرحمن من شيء ، والثالث قولهم : إن أنتم إلا تكذبـــون . فقوبلوا على نظيره بثلاثة أشياء ، أحدها قولهم : ربنا يعلم ، ووجه التأكيد فيه أنـــه في معنى القسم ، والثاني قوله : إنا إليكم لمرسلون . والثالث قوله تعالى : وما علينا إلا البلاغ المبين[2] .

١- انظر التفسير الكبير للرازي ٤٧/٢٦ وتفسير أبي السعود ١٦٢/٧ .

٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٩٠/٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

نماذج متفرقة للعدول

* يقــول تعــالى : وَهُــوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْـنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٩٩) [١]

*ويقــول تعــالى : وَهُــوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(١٤١)[٢]

نلاحظ قوله تعالى في الآية الأولى "مشتبها وغير متشابه" وهذه ثنائية فيها عدول ، وكــان يمكن القول "مشتبها وغير مشتبه" وفي الآية الثانية وردت ثنائية متساوية في قوله تعــالى "متشابها وغير متشابه" . فالأولى من الفعلين اشتبه وتشابه . والثانية من الفعل . تشابه وحده .

ومشتبه اسم فاعل من اشتبه واشتبه الأمر إذا اختلط ، واشتبه علىّ الشيء[٣] .

والمتشــابه مــن تشابه . وفي التنزيل : "منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشــابهات" قيل معناه يشبه بعضه بعضا ... وأما قوله "وأتوا به متشابها" فإن أهل اللغة قــالوا معنى التشابه يشبه بعضه بعضا في الجودة والحسن . وقال المفسرون : متشابها ، لشبه بعضه بعضا في الصورة ويختلف في الطعم [٤].

١- الأنعام ٩٩ .

٢- الأنعام ١٤١ .

٣- لسان العرب ١٣/٥٠٥ .

٤ - السابق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. يـرى الزمخشـري أن اشتبه وتشابه بمعنى واحد ، فيقال : اشتبه الشيئان وتشابها ، كقولك : استويا وتساويا ، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً[١] .

وكذلـك يرى أبو حيان ، فيقول : وقرأ الجمهور مشتبها ، وقرئ شاذاً متشابها ، وهمـا بمعـنى واحـد ، مثل اختصم وتخاصم ، واشترك وتشارك ، واستوى وتساوى ، ونحوها ، مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل[٢] .

ويرى الكرماني أن سبب العدول في (مشتبها وغير متشابه)يرجع إلى أن أكثر ما جـاء في القرآن الكريم من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله (وأتوا به متشابها) (إن البقر تشابه علينا) (تشابهت قلوبهم) (وأخر متشابهات) .

ويرى أن تشابه له معنيان ، أحدهما : ألتبس ، والثاني تساوي وما في البقرة[٣] ، معناه ألتبس فحسب[٤] .

يـرى السـمرقندي أن التشـابه فـي المنظر وغير متشابه في الطعم فمنه الحلو والحامض[٥] .

وعـن قـتادة فـي قوله (مشتبها وغير متشابه) ، قال : متشابها ورقه ، مختلفا ثمره[٦].

ثمـة اختلافات أسلوبية بين الآيتين اللتين ورد فيها عبارة (مشتبها وغير متشابه) وعـبارة (متشابها وغير متشابه) فالأولى يتحدث فيها المولى عز وجل عن المراحل الأولى لإنـبات الـزرع ، فـيقول : "وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا"

١- الكشاف ٣٣٩ .

٢ - البحر المحيط ١٩٤/٤ .

٣- يعني (إن البقر تشابه علينا) .

٤- أسرار التكرار في القرآن ٧٣/١ .

٥- تفسير السمرقندي ٤٩٠/١ .

٦- فتح القدير للشوكاني ١٤٦/٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثـم يـتحدث عن الجنات الناضجة من النخيل والزيتون والرمان . ولا يخفي أن الزرع في مراحله الأولى يشتبه على الكثيرين من باب : اشتبه عليّ . وقد يصعب عليهم أن يمـيزوا بيـن أنـواع الزروع الخضراء ، لذلك استعمل القرآن مع هذه الآية عبارة (مشتبها وغير متشابه) فهو يشتبه على الناس في مراحل معينة وهو كذلك غير متشابه في الأكـل والثمار بدليل قوله بعد : "انظروا إلى ثمره إذا أثمر" أما الآية الثانية فإنها تحدثت مباشـرة عن الجنات المعروشات وغير المعروشات والنخل والزرع والزيتون والرمان ، ولم تتناول مراحل الإنبات الأولى التي يكون فيها الاشتباه ، قال تعالى : "وهو الذي أنشأ جـنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع ..." وقال بعد : "كلوا من ثمره ولم يقل : انظروا إلى ثمره كما في الآية الأولى . لأن طلب النظر في الأولى لإحداث المقابلة والمفارقة بين تلك الزروع التي اشتبهت عليهم وثمارها المختلفة .

اختلاف الدلالة في التعبير بالزمن الماضي وبالزمن المضارع :

يقول تعالى : لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى انفُسُهُمْ فَرِيقا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ(٧٠) [١]

نلاحـظ الثنائـية بيـن الماضـي والمضارع في قوله تعالى "فريقا كذبوا وفريقا يقـتلون"، وكان من الممكن أن يكون التعبير : فريقا كذبوا وفريقا قتلوا ، أو فريقا يكذبون وفريقا يقتلون . لكن جاءت هذه الثنائية بالعدول عن الماضي إلى المضارع .

يقـول الزمخشـري : "فإن قلت : لم جئ بأحد الفعلين ماضيا والآخر مضارعا ؟ قلت : يقتلون جئ على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل ، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها"[٢] .

وكذلـك كـان مذهب كثير من المفسرين ، يقول أبو السعود : "وإنما أوثر عليه صـيغة المضـارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجب منها وللتنبـيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رءوس الآي الكريمة وتقديم فريقا في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع[٣] .

---

١ – المائدة ٧٠ .

٢– الكشاف ١٠٢ .

٣– تفسير أبي السعود ٦٣/٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختلاف الدلالة بين التعبير بالمصدر الصريح والمؤول :

يقــول تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ(٢٠)وَمِنْ آيَاتِــهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١)وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِــي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢)وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣)وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) [١]

نلاحــظ في الآيات السابقة مجيء المبتدأ المؤخر مصدراً أو مصدرا مؤولاً فقال تعالى : أن خلق لكم وأن خلقكم وخلق السماوات ، ومنامكم وابتغاؤكم وأن تقوم السماء ، إلا فــي قوله تعالى : "ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل" فقد عبر بالفعل المضارع غير المصدَّر بأنْ .

وقد شغل النحويون والمفسرون أنفسهم بالبحث عن مسوغ لمجئ الفعل المضارع في سياق هذه الأسماء التي منها المصدر والمصدر المؤول . يقول العكبري : قوله تعالى ومــن آياته يريكم البرق فيه ثلاثة أوجه : أحدها أن من آياته حال من البرق أي : يريكم الــبرق كائنا من آياته . والوجه الثاني : أنّ أنْ محذوفة ، أي ومن آياته أن يريكم والثالث : أن يكــون الموصــوف محذوفاً ، أي : ومن آياته آية يريكم فيها البرق فحذف الموصوف والعائد[٢] .

والــرأي القائل بإضمار أنْ ذكره كثير من المفسرين ، وحملوه على المثل "تسمع بالمعيدى خير من أن تراه[٣] .

١- الروم ٢٠-٢٥ .

٢- التبيان في إعراب القرآن ١٠٣٨/٢، ١٠٣٩ .

٣- انظر الكشاف ٨٢٨ والبحر المحيط ١٦٣/٧ ومعنى اللبيب ٨٣٩/١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقــول ابن هشام معلقا على رفع المضارع بعد إضمار أنْ : وإذا رفع الفعل بعد إضمار أن سهل الأمر ، ومع ذلك لا ينقاس ومنه قل أفغير الله تأمروني أعبد . ومن آياته يريكم البرق ، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه[1] .

ويرى الطبري وجها يمكن حمل الكلام عليه ، يقول : وإن شئت أردت : ويريكم من آياته البرق ، فلا تضمر أن ولا غيره[2] .

وعلى ذلك فالجملة فعلية ، ومن آياته ، جار ومجرور ، متعلق بالفعل .

ومــا يهمــنا من كل ذلك أن نتساءل عن سر العدول الحادث في الآيات الكريمة الســابقة ، ولمــاذا جــاء الفعل يريكم بصيغة المضارع دون مصدره أو جعله في تقدير المصدر المؤول ؟ إن المتأمل في سورة الروم الوارد فيها الآيات السابقة ، يجدها تتناول شــيئا مــن الآيــات الإلهية الدالة على وجوده سبحانه والمستوجبة الإيمان به . بدءا من التصريح بأن الروم سيغلبون في بضع سنين ثم دعوته سبحانه إلى التفكر في الأنفس وفي خلــق الســماوات والأرض ومــا بينهما وكذلك النظر في عاقبة من كانوا قبلنا ، ثم تأتي الآيات إلى ذكر بعض آيات الله سبحانه وكان عرض الآيات في إطار المصدر المؤول أو الصــريح إلى أن يصل سبحانه إلى آية البرق والمطر فيذكر المضارع من دون مصدره المــؤول أو الصريح ، وهو قوله سبحانه "ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء" وقد يكون لذلك الدلالات التالية .

١- التعبير بالمضارع استحضار صورة أو مشهد البرق أمام أعينهم وكذلك إنزال الماء من السماء ، وهذا مما لا يستطيعون إنكاره .

٢-المطر في البيئة الصحراوية هو الحياة ، وقد يستغنى الإنسان عن أشياء كثيرة إلا المطــر فكان التعبير بيريكم قوى الدلالة على أن سبب الحياة الذي تنتظرونه ولا حياة لكــم بدونه إنما هو من الله لا من غيره وتلك آية ونعمة يجب أن توقظكم ومن أنعم بذلك إنــه لجدير بالعبادة وعدم الإشراك لذلك ختم الله سبحانه الآية بقوله : إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

١- معنى اللبيب ٨٣٩/١ .

٢- تفسير الطبري ٣٣،٣٤/٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

رصـــدت هذه الدراسة بعض نماذج الأسلوب ألعدولي في القرآن الكريم رابطة بين الظواهر النحوية وما تجيزه من إمكانات تعبيرية والهدف الدلالي من وراء العدول .

ولـــربما كانت النقطة الأخيرة هي مدار الحديث وبيت القصيد ، فلا قيمة للتناول الـــنحوي الـــذي يقف عند مستوى الصواب والخطأ ما لم يبين المقصود الدلالي من وراء الاختـــيار التعبيري أو العدول عن أسلوبا لأخر وبخاصة إذا كان النص موضوع الدراسة هو القرآن الكريم .

بـــناء علـــي معطـــيات لغوية وما وقع في بعض آيات القرآن الكريم من عدول توصـــلت هـــذه الدراسة إلي استنتاجات وأراء قد تعد إضافة جديدة أو إضاءة علي دلالة بعض الآيات ، اذكر منها :

١-ذهبـــت الدراسة إلي أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض تختلف عن الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض .

٢- رأت الدراســـة أن العـــدول عن الفعلية إلي الاسمية في قول سيدنا إبراهيم (قال سلام) يدل علي اضطرابه وخوفه من ضيوفه الذين ينكرهم .

٣-عـــدول السحب من الفعلية إلي الاسمية المنسوخة في قولهم (وإما أن نكون أول من ألقى) يدل علي رغبتهم في الإلقاء أولا .

القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ليس فقط تفسيرا دلاليا وإنما تفسيرا تركيبيا ففي بعض التراكيب نجد تفسيرا لما وقع في تراكيب أخري من زيادة وحذف وتعريف وتنكير إلي آخر ذلك من أوجه العدول وقد استعانت الدراية بهذا المنهج .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

* أسـرار التكرار في القرآن . محمد بن حمزة الكرماني .دار الاعتصام . الطبعة الثانية ١٣٩٦.تحقيق عبد القادر أحمد عطا

* أضواء البيان . محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي . دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ١٤١٥هـ

* البحر المحيط . ابو حيان الأندلسي – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

*البرهان في علوم القرآن . محمد بن **بهادر** بن عبد الله الزركشي . دار المعرفة – بيروت ١٣٩١هـ . تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم .

* التبيان في إعراب القرآن . ابو البقاء العكبري .دار إحياء الكتب العربية . تحقيق علي محمد **البجاوي**

* التسهيل لعلوم التنزيل . محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي . دار الكتاب العربي – لبنان . الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .

* تفسير ابي السعود .محمد بن محمد العمادي . دار إحياء التراث – بيروت .

* تفسير ابن كثير . اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي . دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ

* تفسير السمرقندي . نصر بن محمد أبو الليث السمرقندي . دار الفكر – بيروت . تحقيق د . محمد مطرجي

* التفسير الكبير . فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي .دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة الأولي ١٤٢١هـ .

* روح المعاني . أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي . دار إحياء التراث – بيروت .

* سر صناعة الإعراب. أبو الفتح عثمان بن جني– دار القلم – دمشق الطبعة الأولي ١٩٨٥م . تحقيق د. حسن هنداوي .

* الفصول المفيدة في الواو المزيدة . صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي . دار البشير – عمان الطبعة الاولي ١٩٩٠م . تحقيق . د. حسن موسي الشاعر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* الكتاب سيبوية – تحقيق وشرح عبد السلام هارون .. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨ م مكتبة الخانجي.
*الكشاف للزمخشري . دار إحياء التراث – بيروت
* لسان العرب . أبن منظور .
* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . أبو محمد عبد الحق غالب بن عطية . دار الكتب العلمية – لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد
* المفـــردات فـــي غريب القرآن . ابو القاسم الحسين بن محمد – دار المعرفة – لبنان تحقيق محمد سعيد الكيلاني .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner